كتاب

تاريخ بيروت واخبار الامراء البحتريين من بني الغرب
لصالح بن يحيى

سعى بنشره وتهذيب عبارته وتعليق حواشيه

الاب لويس شيخو اليسوعي

(تابع لما قبل)

واما القناة (١ التي كانت تجري اليها فهي من المآثر العجيبة وكانت تجري من مكان يسمّى العرعار (٢ من ارض كروان (٣ قيد اثني عشر ميلًا

---

١) هذه القناة من عجائب الآثار القديمة وقد بقي منها الى اليوم بقايا ضخمة موقعها في وادي العرعار بين قريتي برمانا وبيت مري وهي المعروفة عند البعض بالجسر الروماني والغالب عليها اسم قناطر زبيدة. ويقول العامّة ان زبيدة زوجة الخليفة هرون الرشيد هي التي شيّدتها لتستجلب بها مياهًا عذبة لبيروت. ونسبها البعض الى زينب ملكة تدمر الشهيرة. والصحيح انّ هذه القناطر قديمة العهد تنبئ هندستها على شغل الرومانيين. وفوقها كانت تجري المياه المجلوبة من نبع نهر بيروت. وقد زعم البعض ان باني هذه القناة هو بطليموس المعروف بالشهير شيّدها في اواخر القرن الثالث قبل المسيح. وقد زارها العلّامة الاب ميشال جوليان اليسوعي منذ نحو اربع سنوات ووصفها وصفًا مدققًا. وسننقل ان شاء الله وصفهُ في بعض اعداد مجلّتنا المشرق لما فيها من جزيل الفوائد وهو يبيّن في مقالهِ انّهُ كان ينصبُّ بالقناة مقدار مكعّب من الماء اي ازيد مما تأتينا بهِ الآن آلات جمعية نهر الكلب الانكليزية بنحو خمس عشرة مرّة. هذا وانّ في قرب الشياح آثارًا لقناة كانت تجري بها المياه الى بيروت فيقال انّ مياه النهر كانت منقسمة الى قسمين فتأتي بيروت شرقًا الى مصنع في محلّ القبيات وجنوبًا الى مصنع في الشيّاح ومنهما تجري المياه فتعمّ سائر انحاء البلدة

٢) يستدلُّ من هذا ان اسم الوادي الذي فيهِ يجري نهر بيروت هو العرعار. وبهِ سمّى البعض نبعَ هذا النهر نبعَ العرعار. وكان القدماء يدعونهُ نهر ماغوراس

٣) انّ اسم كروان لم يحصر في قديم الزمان في المقاطعة المعروفة اليوم بهذا الاسم وانما كانت تمتدّ الى جهة المتن الاسفل

ومما يُستدَلّ على كبر بيروت وسعتها (١ ما يجدُ الناس في الحدائق بظاهرها من

١) قد احببنا ان نروي هنا نبذة ملخَّصة من تاريخ بيروت القديم الى الزمان الذي ذكرهُ المؤلف لئلّا تفوت هذا الكتاب ما ورد في غيرهِ من الفوائد التاريخية التي يجب اهل بيروت الاطلاع عليها فنقول :

قد سبق انَّ بيروت من اقدم مدن الله عهدًا. بيد انهُ لم يكن في يدنا الّا النزر القليل من اخبارها في القرون السابقة للمسيح حتَّى صرَّح الحق عن محفيهِ منذ عشر سنوات لمّا اكتُشفت في الصيد تلك الكتابات الجزيلة الأهمية المعروفة برسائل تلّ أمرنا. وهي عبارة عن مجموع رسائل وردت ملكي مصر امينوفيس الثالث وامينوفيس الرابع من قبل عمّالهِ في كنعان فضلًا عن مراسلاتها مع ملوك سورية وبين النهرين في القرن الخامس عشر قبل المسيح وهذه الرسائل مكتوبة باللغة الاشورية او البابلية وهي محفوظة في متاحف لندرة وبرلين وبولاق

فيستخلص من هذه المكاتبات ان بيروت كانت في اوَّل امرها كبقيَّة مدن فينيقية خاضعة لملوك اشور ونينوى الاوَّلين. والدليل على ذلك انَّ اهلها وحكَّامها كانوا يتكلَّمون باللغة الاشورية ويكاتبون بها ملوك مصر بعد أن فقد البابليّون ولايتها. وبقي اللسان الاشوري شائعًا في ظهراني الامة الفينيقية وعنهُ تفرَّعت اللُّغة الكنعانيَّة ثمَّ الفينيقيَّة. ولمّا قويت شوكة الفراعنة تولَّوا على سواحل فينيقية نحو القرن الثامن او التاسع عشر قبل المسيح وكانت بيروت من جملة ما ملكت ايديهم. وجعل ملوك مصر لكل بلدة « خزاني » اي ولاة كانوا يحاروهم بين الاهلين تحت مراقبة حكَّام مصريين يدعونهم « ريصي ». ولوالي بيروت في ذلك العهد عدَّة رسالات وُجدت بين كتابات تلّ امرنا يتضح منها جليًّا ان بيروت (وهم يدعونها بيروتا او بيرُوتُو) كانت على جانب من الحضارة والعمران في القرن الخامس عشر قبل المسيح فيعدُّونها بين المدن المتينة الحريزة كصور وصيدا وجبيل ويذكرون كثرة سفنها الشاهرة بالملّاحة

هذا ولمّا تضعضعت دولة الفراعنة في القرن التاسع او العاشر قبل المسيح تقلَّبت الاحوال على بيروت فحلَّ بها ما حلَّ بأخواتها من المدن الفينيقية وتملكها تباعًا بعدهم ملوك بابل ثمَّ ملوك فارس وماداي ثمَّ الاسكندر وخلفاؤهُ من السلوقيين. واستقلَّت مرارًا عند استقلال غيرها من مدن فينيقية تشهد بذلك الآثار والنقود التي وجدت بها. وفي سنة ١٤٠ ق م اخربها تريفون لثبات اهلها على طاعتهم للملك انتيوخس السادس. لكنها لم تلبث ان تعود الى ما كانت عليهِ من رفعة المقام (راجع العدد الاول من المشرق ص ١٩). ودخلها يوميوس القائد الروماني فرمَّم آثارها واعاد لها رونقها. ولم تزل منذ ذاك ترتقي في مدارج الفلاح الى ان جعلها اوغسطس قيصر مدينةً اوَّلية فخوَّل اهلها حقوق الرومانيين وافاض عليهم نعمًا عديدة اخصَّهم بها دون سواهم وولَّى امرها القائد مرقس فنيسيانس اغريبا بعد ان زوَّجهُ ابنتهُ جوليا قدعا بيروت باسمها جوليا فيليكس (اي السعيدة). فاخذ اغريبا يباري قيصر في رفع شان المدينة ساعدهُ على ذلك هيرودس الكبير. ولم يدَّخر كلاهما شيئًا من الوسع لجملها من ابهى مدن الشرق. فشيَّدا فيها الابنية الجليلة الآتلة لمنفعة الجمهور كالهياكل والمشاهد والحمَّامات ومخازن التجارة. فتقاطر الى بيروت كثير من الرومانيين

الرخام واثار المباني القديمة ما طولهُ قريب من ميلين اولهُ مكان يُسمَّى بُليدة وذو قسية (١ غربيّ البلد الى مكان يسمَّى حقل الفشا (٢ مقارب النهر شرقي البلد . فلمَّا عمَّروا السور اختصروهُ على القدر الذي هو عليهِ اليوم

وقد زعم النصارى أنَّ في القدَم خرج في بيروت تنّين عظيم فقرَّر اهل بيروت لهُ

والقرباء فاستوطنوها وزادت بهم حسنًا وعمرانًا . وسكنها طابوران من الجنود الرومانيين المتقاعدين وبها حكم هيرودس الكبير بالموت على ابنَيهِ اسكندر وارسطابولس فقتلها ظلمًا كما قتل امَّهما مريمنة وهي من سلالة الحكاميين . وبقيت بيروت على ذلك مدة الى ان تولَّى امرها بعد المسيح هيرودس اغريبا الاول ثمَّ هيرودس اغريبا الثاني فبلَّغاها من الحسن ما لم يسمُ قول . فشيَّدا فيها الملاعب والمراسح وزيَّناها بالتماثيل الى غير ذلك . وفي بيروت بويع بالملك لفسباسيانوس بعد وفاة نيرون . وفيها احتفل ابنهُ تيتوس قيصر باظفارهِ على اليهود يوم مولد ابيهِ بما لا مزيد لهُ من الفخر والابهة

امَّا العلوم فكانت بيروت قد سبقت غيرها من المدن الفينيقية في الانكباب عليها فراجت فيها اسواق الآداب . وفيها كتب كما زعم اوسابيوس القيصري سنكُنيتنُ الكاهن القديم تاريخًا ابقى لنا منهُ فيلون الجبيلي فقرات مهمَّة . وفي ايام اوغسطس قيصر اخذ البيروتيون يدرسون الفقه . وتوسع نطاق هذا الفن بينهم حتَّى صارت مدرستها الفقهية في القرن الثالث للمسيح غرَّة في جبهة المشرق يتسابق اليها الدارسون من كل أوب . فدُعيت بيروت لذلك «مهبط العدل وصوان المشترعين» . وقد اشتهر في بيروت عدَّة من العلماء الاقدمين منهم أوليان الفقيه صاحب كتب الشرائع الذي ازهر في القرن الثالث . ومنهم فالريوس بروبوس النحوي البارع عاش في القرن الرابع

وقد اطنب الكتَّاب الاقدمون في مدح بيروت لامور اختصَّت بها . فمن ذلك غناها ويظهر من عدَّة كتابات ان تربتها كانت تُعَدّ من اخصب الترب واوفقها للنخل . ومنها خمرها الجيِّدة وصفها بهِ الكاتب بليبوس الطبيبي وقال انَّها تشتجر بهِ اشجارًا باسقًا (Pline, l. XIV, c. 7. l. XV, c. 17) . ومن ذلك ايضًا معاملها للانسجة وصابغها ورد ذكرها مرارًا فجارت بذلك صور وصيدا . وكان فيها معامل للحرير قبل الاسلام (Joannis Strauchi dissertatio de Beryto, *Brunqvigæ*, 1662, p. 6)

ولم تبرح بيروت راقيةً في منازل السُّعد الى ان هوى نجمها وطمست معالمها وذلك في القرن السادس للمسيح فهدمتها زلزلة هائلة خرَّبت قسمًا كبيرًا من مدن الشرق . وبقيت على هذه الحالة الى اوائل القرن السابع فاستولى عليها المسلمون دون عائق

١) لم نسمع لهذين المكانين ذكرًا ولم يفدنا احدٌ عنهما شيئًا . ولعلَّ هذه الآثار هي التي اكتشفها حديثًا الدكتور جول روفيه وارتأى انَّها بقايا مدينة بيروت الفينيقية وانَّما كانت تدعى لاذقية كنعان وقد وجد فيها نقودًا بهذا الاسم . وقد وقف ايضًا هناك على مدفنها الفينيقي كما يشرنا قرَّاءنا بهذا العدد

٢) وهذا الحقل ايضًا لم يرشدنا اليهِ احدٌ من الاهلين

في كل عام بنتاً يُخرجونها اليهِ اكتفاء لشرّهِ فوقعت القرعة في سنةٍ من السنين على صاحب بيروت . فاخرج بنتهُ ليلًا الى مكان موعد التنين فتوسّلت بالدعاء الى الله فتصوّر لها مار جرجس القديس . فلمّا جاء التنين خرج عليهِ مار جرجس فقتلهُ فمرّ صاحب بيروت في ذلك المكان كنيسة بالقرب من النهر . والنصارى تصوّر هذه الكائنة في سائر كنائس بلادهم قلّ ما يخلو منها كنيسة . ويزعم النصارى انّ مار جرجس من لدّ قتلهُ ملك عبدة الاصنام بجودان ولهُ عيد مشهور عندهم في سائر البلاد . واهل بيروت المسلمين والنصارى يخرجون في ذلك العيد الى نهر بيروت ويسمّى عيد النهر وهو من البدع (١ . (وجاء في حاشية الكتاب: عيد النهر المذكور دائماً يكون ثالث وعشرين نيسان)

وايضاً يزعم النصارى انّ البربارة كانت قدّيسةً ولها نشبٌ كبيرٌ ببيروت (٢ وعيد البربارة منسوبٌ اليها

ويزعمون ايضاً انهُ كان بكنيسة الفرنج ببيروت قونة خشب فيها صورة مصوّرة فضربها بعض اليهود بسكين فصارت تنزف دماً . ونُقلت هذه الصورة الى قسطنطينية فمرّوا عليها كنيسة يعظمها الفرنج (٣ (ستأتي البقية)

---

١) قد روينا هذه القصة كما اثبتها المؤلف الّا اننا لا نقطع بصحّتها . وقد بحث فيها البولنديستيون بحثاً مدقّقاً فلم نرَ حاجةً لايراد ما قالوا . واعمال القديس جرجس مضطربةٌ جدًّا تلاعبت فيها ايدي الكتّاب . وما تقرّر انهُ وكان من شهداء القرن الثالث للمسيح وكان جندياً في عسكر الملك دبوكليسيان . قيل انهُ قتل في نيقوميديا وقيل في لُدّ وقيل في بيروت . وذكرهُ كان منتشرًا في كل انحاء المشرق . واسمهُ مدوّن في أقدم سجلّ للشهداء الذي نشرهُ بالطبع العلّامة الانكليزي رَيت (Wright) وهو بالسريانية وتاريخهُ سنة ٤١١ م للمسيح وُجد في دير الاسقيط بالصعيد

٢) لعلّ المؤلف يريد ان لها اوقافاً حبسها النصارى على كنائسها زهدًا وتعبُّدًا . والقديسة بربارة احدى العذارى الشهيدات التي ماتت في سبيل الايمان المسيحيّ في عهد ديوكليسيان

٣) ورد ذكر هذه المعجزة في جملة كتابات للقديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية . والصواب انّما لكاتب آخر سريّ جاء بعدهُ . وفي اعمال مجمع نيقية الثاني قد ذكر الآباء امر صورة بيروت ولها عيدٌ يحتفل بهِ في كنائس الشرق والغرب . والسنكسار الروماني يذكرها في اليوم التاسع من تشرين الثاني (راجع البولنديستين وكتاب مروج الاخبار)

وهنا يجدر بنا ان نذكر بعض آثار تختص بذكر النصرانية في بيروت قبل الهجرة فات المؤلف ايرادها فنقول :